مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية
المجلد ٤ - العدد ٤ من ١٧ إلى ٢٢

صفر ١٤٠٢هـ
كانون الأول ١٩٨١م

اللغة
بين
الكتابة والقراءة

المعيد
علي نجيب إبراهيم
كلية الآداب

تحظى القراءة باهتمام اللغويين في انحاء العالم كافة، وطبيعي أن صعوبات القراءة تعود في الغالب الى صعوبات الكتابة فبقدر سهولة الكتابة واستيعابها لما هو منطوق بقدر ما تغدو القراءة سهلة يسيرة وتحاول هذه المقالة معالجة وضع اللغة ضمن حقلي : الكتابة والقراءة

لعلّنا لا نجد مكسباً اجتماعياً أفضلَ من اختراع الإنسان للغة ، فهي ظاهرة اجتماعية ترتبط في نشأتها بولادة الحضارة الإنسانية ، ويعتقد بعض من الدارسين أنَّ حيازة الإنسان على اللغة تواقتت مع حيازته على الحضارة ، وأنّ في افتراض خلوّ المجتمع البشري من اللغة اقتراباً بالبشرية من بداءةٍ يوشك أن يكون معها الفرق بينها وبين عالم الحيوان ضئيلاً جداً .

وتنبع أهمية اللغة من كونها ترمز لمعاني الحياة في جميع تصاريفها بأصوات ينتجها جهاز النطق عند الإنسان ، ونتيجة الممارسة الطويلة للعمليّة اللغوية يدرك معاني الرموز الصوتية ، وبهذا يتفاهم الإنسان مع أخيه الإنسان ، ومن ثَمَّ ارتبطتِ اللغة بالفكر إذ ليس تعريف التفكير بأنه حديث داخلي بين المرء وذاته إلا تجسيداً لهذه الحقيقة ، وهكذا يتميز باللغة عن سائر الكائنات إذ باللغة صار الإنسان إنساناً ، وباللغة تطورت الحضارة وتقدّم العمران ، وبلغ العقل الإنساني ذروته ، فدرْس اللغة درساً علمياً فلسفياً درس في الإنسان وفكره ، ويتساءل هاري هويجر في بحث له حول هذا الموضوع : «فكيف يبدو المجتمع إذا كان بلا لغة ؟» ، ثم يجيب قائلاً : «إنه سيكون طبعاً من دون كتابة أو أية وسيلة أخرى للتخاطب بالكلمات لأن كل هذه الوسائل تعتمد أساساً على الكلام المنطوق وستكون وسيلة تعلُّمنا محدودة جداً ، وسوف نضطر ـ كالحيوانات ـ أن نتعلّم من خلال العمل أو تقليد أعمال الآخرين» / الإنسان ، والحضارة ، والمجتمع . ترجمة د . عبد الكريم محفوض . ص ٣٦٩ ـ ٣٧٠ / . هذا مع اعتبارنا أن اللغة فاعلية ما كانت لتنشأ إلا عن الممارسة العملية مما لا يُنافي قولة علماء الاجتماع : أصبح الإنسان إنساناً بالعمل ، ويظهر لنا من كلام هو يجر جانبان :

١ ـ وعي اللغة على أنها منطوقة ، أي أنها أصوات تتفاهم بوساطتها .

٢ ـ تفريق الكاتب بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة ، وتأكيده على الأصرة بينهما مما يلفت الإنتباه إلى أنَّ اللغة المكتوبة رهن بوجود اللغة المنطوقة وهي داخلة في مجال دراساتِ علم اللغة ، وليست هامشية أو مهملة فيه .

واستناداً إلى هذين الجانبين سنقيم دعائم نقاشنا الذي يتناول أهمية الكتابة في الدراسات اللغوية تلك الأهمية التي تكاد تضارع أهمية النطق كما سيتبيّن .

صحيح أنَّ علم اللغة يَولي أكبر اهتمامه للغةِ المنطوقة ، فيدرس الأصوات وما يتعلّق بها ، ولكنه يدرس الكتابة أيضاً ؛ ذلك لأنها لغة ، فإذا كانت المنطوقة مجموعة من الأصوات ترمز للمعاني فإنّ المكتوبة رمز لهذه الأصوات ، أو رَمْز الرمز ـ كما سمّاها بعضهم ـ ولا شك

أن كتابة الصوت برمز مرسوم هي حِفظٌ له وديمومة ، وليس تعسُّفاً أن نسمِّي الكتابة مستودعاً لحفظ الأصوات أو لنقل لحفظ المعاني التي ترمز لها الأصوات .

وإذاً ، فهناك علاقة وثيقة بين اللغة والكتابة ، فالإنسان يترجم بوساطة الكتابة الكلمات المنطوقة إلى كتابة ، والكتابة إلى كلام منطوق ، حتى إننا نعتقد بأنّ الكتابة نفسها ما هي إلا شكل من أشكال اللغة ، ويؤكد هو يجر من جهة أخرى ـ وهو مصيب في تأكيده ـ على أن الكتابة وسيلة خارجية تمكننا من الاحتفاظ بسجلّ دائم للكلام إلى حدّ ما . . . ولكنها عنصر حضاري متميّز جداً عن اللغة المنطوقة بأصله وتاريخه ، لأن الكتابة أحدث من اللغة بكثير «فلقد حاز الإنسان على اللغة منذ ما يقارب المليون سنة ، بينما لم تظهر الكتابة إلا في بداية عصر البرونز ، ولدى عدد محدود من المجتمعات فقط» / نفسه ص ٤٠٣/ .

فالكتابة ـ كما نفهم من هذا القول ـ اختراع لا حقّ على اللغة ، ولكنها من مشتقاتها على أية حال ، ولذلك لسنا نوافق الدكتور سعيد فريحة في فصله الجائر بين اللغة والكتابة ، فهو يرى أن الكتابة عَرَض أو طارىء على اللغة : «الكتابة ليست من اللغة بشيء كما أنّ الرموز الموسيقية ليست من الموسيقى بشيء» / نحو عربية ميسرة ـ ص ١٩٠/ ، لا نوافقه لأنّ الكتابة ـ في نظرنا على الأقلّ ـ مظهر أكثر تطوراً من مظاهر استمرار اللغة المنطوقة ، ولا أدلّ على ذلك من الدور الحضاري الكبير الذي تشغله الكتابة ، فهي سبب انتشار المعرفة والثقافة بين المجتمعات ، وهي اختراع ما كان ليتحقق لولاه هذا الاتصال بين الماضي والحاضر ، وبين أفراد المجتمع الواحد . ويرى البشير بن سلامة أن الكلمة المكتوبة رمز للواقع ، ثمّ يردف : «ولعله من أجل هذا خُلِقَ مع الكتابة النثر الذي ليس هو الحديث ولا الشعر ولا الأمثال ولا الخطابة ، بل هو ضرب من وسائل التعبير من شأنه أن يخرج الإنسان من سلطان الذاكرة ، ويحفزه على التصدي إلى الذاكرة المنشدة فيُبعدها ويرمي بها عرض الحائط» / مشاكل الكتابة العربية ص ٤٠/

إنَّ في كلام البشير ـ الذي آثرنا أن ننقله ـ تصوُّراً وجيهاً عن الفترة التي لم تكن الكتابة منتشرة فيها ، إذ كانت ممارسة اللغة تقوم على ما تدخره الذاكرة من معاني الأصوات دون أن يكون هناك أيّ مرجع آخر . ثمَّ اختُرِعَتِ الكتابة وتولّد عنها النثر الذي غدا ذاكرة تختلف عن ذاكرة الإنسان ، ذاكرة تترجم الصوت إلى رمز مكتوب تحفظه ، وبذلك تحرر الإنسان من أعباء الحفظ . وضروري أن نشير إلى ما سبق لابن خلدون أن بَحَث فيه وهو أن الذاكرة

المنشدة كانت سائدة في مرحلة تاريخية لا تتطلب وجود الكتابة ، لأنّ الكتابة «تنعدم مع البداوة ، وتكتسب بالتحضرّ ، والكتابة فن حضري ، فلا تنشأ في البيئة الصحراوية» / المقدمة ص ٤١٧ / ، من هنا نعرف كيف تولد النثر ، وأية مرحلة تطلبت ولادته ، إنها مرحلة تعقّد حياة المجتمع ، وانتقالها من حياة البداوة إلى حياة الحضر لامراء ، ومن ثَمَّ نعرف أيضاً أن النثر (وليد الكتابة) نتيجة الخلق والإبداع عند الإنسان وليس سبباً لهما كما يقول البشير : «والنثر يدعو الإنسان إلى كسر العادة ، ودوس التقاليد المكبّلة للخلق والإبداع والمقيّدة لحوافز التقدّم والرقي» / مشاكل الكتابة العربية ص ٤٠ / . وإذا كنا نحسب هذا الإغفال على البشير فإن في رأيه اللاحق أهمية خاصة حيث يقول : «وهذا النوع من النثر هو الذي ولدت معه القراءة . .» ص ٤٠/ . وتبدو هذه الأهمية من كون الكاتب يُمسك بخيط تطور الكتابة من مجرّد كونها رموزاً للأصوات إلى صيرورتها وسيلة من أفضل وسائل نشر المعرفة الإنسانية ، ولكي يدفع التساؤ ل عن كيفية تطور القراءة يقسمها إلى قسمين ينطوي كل قسم على مرحلة :

١ ـ مرحلة القراءة بالإنشاد ، وهي للتعلم والتدرّب .

٢ ـ مرحلة القراءة الصحيحة الكاملة التي تعتمد العين دون النطق .

فالمرحلة الأولى تعبّر عن طفولة الإنسان في تعامله مع اللغة المكتوبة ، وعن إرهاصات أولية لبداءة فن القراءة الناشيء أساساً عَن فن الكتابة ، وهذه البداءة هي الإنشاد للتعوّد على اللفظ وربط ما ينطق من الأصوات بالرموز المكتوبة ثم تحليلها في الذهن لإدراك معانيها .

وفي المرحلة الثانية ـ مرحلة اكتمال القراءة ـ انتقل الإنسان من المسموع وربطه بالمكتوب وبالمعنى المختزن في الذهن انتقل إلى المرئي ـ المكتوب ـ وربطه بالمعنى المختزن في الذهن مباشرة ، وهذه عملية أصعب من الأولى ، لأنها تعتمد على التجريد في اختصاره خطوة من خطوات المرحلة الأولى وهي السماع ، والاعتماد على التجريد تعبير عن مرحلة أكثر رقياً للذهن البشري .

من جهة أخرى ينوه إلى أن هاتين المرحلتين لا تزالان تتبعان حتى الآن في التعليم المدرسي فيعلم الطفل اللغة أولا بقراءة الإنشاد التي تعتمد الوسيلتين : السمعية ، والبصرية ، فنحن نعلم أن الأولاد عندما يتعلمون الكتابة يمدون ألسنتهم على إيقاع كفهم ، أو أنهم يلفظون الكلمات بالصوت العالي لا لأن أحداً يسمعهم ، بل ليساعدوا أنفسهم على تسيير القلم ، وهذه الحركة غير إرادية تماماً والذي يحدث بالفعل هو أنه يوجد «بث عصبي»

يبتدىء من الأعضاء المحركة في اليد حتى المنطقه المجاورة للدماغ التي تراقب اللسان ، وعندما تتحسن انفعالات الولد مع التجربة العلمية يزول هذا البث العصبي / دراسات ماركسية في الشعر والرواية جورج طومسون ، فلاديمير دينبروف . الصفحة ٣٠/ .

إن اعتماد السمع والبصر ومايرافقهما من حركات ناتجة عن البث العصبي بحسب تعليل طومسون يبغي إلى التمهل في تعلم الطفل كي يتعود بالممارسة على كيفية التعامل مع اللغة لكن لا يبقى الأمر كذلك ، إذ انه مع تطور الطفل العقلي يألف اللغة ويُعوَّدُ بالتدريب أيضاً على وسيلة أكثر تجريداً ، وبالتالي أكثر صعوبة من الأولى ، وهي الوسيلة البصرية ، أو القراءة الصامتة .

ولما أن كانت اللغة وسيلة تعلم وتحصيل لدى الإنسان فمن الجلي أنه لا بد من تعلم القراءة لفهم اللغة باعتبارها ركناً رئيساً من أركان زيادة الخبرات والمعارف ، وبغية كتابتها أيضاً بعد تمثل صورها وأبنيتها . استناداً إلى ذلك نؤكد أن جدلية العلاقة بين اللغة المنطوقة ، واللغة المكتوبة أو المقروءة .

ربما بدا هذا العرض مطولاً بعض الشيء ، غير أن الهدف من ورائه يقتضي ذلك ولعلنا أدركنا الآن كيف انتقل الإنسان عبر الممارسة والزمن من الصمت إذا صح أن نسمي الأصوات غير اللغوية صمتاً ـ إلى اللغة المنطوقة ثم إلى اللغة المكتوبة وأخيراً إلى القراءة التي تعتبر ثورة في عالم الإنسان وتمييزاً واعياً لفعاليته ، ولنستخدم ما يقوله أدونيس في معرض حديثه عن استخدام الإنسان للغة باعتبارها منظومة رمزية تميزه عن الكائنات غير الواعية «هذا كله يؤكد أن الإنسان آخذ في التميُّز عن الحيوان والآلة بشيءٍ خاصٍ به وحده ، هو القراءة ، وممارسته اللغة باعتبارها منظومة رمزية الحيوان يرى العالم . الآلة تَعكسه ، الإنسان لا يرى وحسب ولا يعكس وحسب وإنما يقرأ ويغير أيضاً» . / أدونيس (علي أحمد سعيد) ـ الثابت والمتحول ـ الجزء الثالث . ص ٢٢٦/ .

وإذا ما انتقلنا من العلاقة الموضوعية العامة بين القراءة والكتابة باعتبارهما جانبين هامّين من جوانب اللغة فخصّصْناها بالتركيز على لغتنا العربية إذاً لا نطرحَ أمامنا سؤال ذو أبعاد تحتاج إلى التفحص والمداراة ، والسؤال هو :

إلى أيّ مدى تؤثر كتابتنا العربية في مستوى قراءتنا
وهل ثمّة من صعوباتٍ في القراءة ناتجة عن مشكلات
في الكتابة العربية ؟

وفي الحقّ ، فإنَّ استعراضنا هذا هدَفَ الوصولَ إلى هذا السؤال الذي يحتاج - فيما نظن - إلى بحث طويل مستقل من شأنه أن يجمّع الآراء حول محور من نقاش يتناول مشكلات الكتابة العربية ويستدرك لها الحلول المتناسبة مع طبيعة لغتنا العاكسة للطبيعة الفكرية والاجتماعية للإنسان العربي ، فلنرجيء الحديث في ذلك إلى حين .